القيروان حلقة وصل فقهية
بين بلاد شنقيط والمشرق

الأستاذ / عمر السالك بن الشيخ سيدي محمّد

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد. وعلى آله وصحبه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

السيد: رئيس الجلسة ـ، السادة أصحاب الفضيلة ـ، السادة أصحاب السعادة ـ، زملائي الباحثين ـ، أيها الإخوة الحضور:

السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

وبعد، فأريد ـ بادىء ذي بدء ـ أن أشير إلى كلمتين، أرى لزاماً عليَّ قولهما:

أولاهما: أنني أتقدم (أصالة عن نفسي، ونيابة عن دائرة الأوقاف والشؤون الإسلامية، بدبي بإدارة مديرها العام، فضيلة الشيخ عيسى بن عبدالله بن مانع الحميري، حفظه الله) بخالص الشكر، لسعادة الأستاذ الدكتور/ أبي لبابة حسين، مدير مركز الدراسات الإسلامية بالقيروان، ولجميع القائمين على المركز؛ على عقد مثل هذه الملتقيات الدورية. وأشكر ـ كذلك ـ السادة الباحثين المشاركين في هذا الملتقى، على الأبحاث القيمة التي قدموها، ونرجو أن يظلوا يقدمون أمثالها حتى تتلاقح أفكار العلماء (أمثالهم)، وحتى يستفيد التلامذة (أمثالي)، من البحث العلمي الموضوعي في الدراسات الإسلامية، لإبراز الوجه المشرق لموروثنا الثقافي العظيم.

وثانية الكلمتين: أنني أتقدم بخالص الشكر، لفضيلة الشيخ عيسى بن عبدالله بن مانع الحميري، حفظه الله ورعاه، على الثقة التي ما فتىء يولِينيهَا؛ وإن لم أكن أهلاً لها، إلا أنني أتمثل قول الشاعر:

ولكنه قد يَبْذُلُ الجهدَ مُقْتِرٌ وقد تُكْرَمُ الأضيافُ والقِدُّ يُشْتَوَى

وقد جعلت بحثي المتواضع هذا تحت عنوان:

القيروان حلقة وصل فقهية بين بلاد شنقيط والمشرق

سيدي الرئيس..، سادتي العلماء أصحاب السعادة والفضلة..، زملائي الباحثين:

لقد شاءت حكمة الله تبارك وتعالى أن يقيض لدينه أئمة، على عدالتهم أجمعت الأمة. تفقهوا في الدين، فحفظوا الشريعة الغراء، وساروا على المحجة البيضاء، بعد أن كثر الشقاق وقل الاتفاق، فجمعوا بين تصحيح الرواية وتحقيق الدراية. وأسسوا قواعد العلم وأصوله، وألفوا فرائده وفصوله، وجمعوا من أشتاته ما تفرق، ووصلوا من أوصاله ما تمزق، فصارت العلماء لهم أتباعاً، فكان اتفاقهم حجة قاطعة، واختلافهم رحمة واسعة.

وكان من بين هؤلاء الأئمة المجمع على عدالتهم إمام دار الهجرة مالك بن أنس، رحمه الله تعالى، الإمام المهدي والعالم المرضي، والحافظ اللوذعي، الذي شاء الله أن يكون مذهبه، أكثر انتشاراً في بلاد المغرب الإسلامي، حتى صار المذهب الفقهي المعتمد والمعمول به في تلك البلاد.

ولئن كان تلامذة الإمام مالك الذين أخذوا عنه بغير واسطة، قد اعتنوا بمذهبه ورتبوه، فإن تلامذته الذين أخذوا عنه بواسطة ليسوا أقل اعتناءً بالمذهب، فإن من بينهم من تفانى في خدمته والتفريع عليه، وأثرى المكتبة الفقهية المالكية، ومن هؤلاء، أبناء القيروان عاصمة الإسلام الأولى ببلاد المغرب، أمثال:

1 ـ الإمام سحنون، الفقيه المالكي الذي هو أول من أظهر علم المدينة بالقيروان بعد أن رجع من المشرق سنة 191 هـ قال محمد بن حارث: «كان

مذهب مالك بإفريقية قبل سحنون، والعمل به قليلاً، ولما قدم سحنون انتشر»[1]. والإمام سحنون هو صاحب المدونة التي لعبت دوراً بارزاً في تنشيط الحركة العلمية في المغرب والأندلس.

2 ـ والإمام أبي محمد عبدالله بن أبي زيد القيرواني، الذي يلقب بمالك الصغير، صاحب التآليف المفيدة للمبتدئين والعلماء، على حد سواء. وهو مؤلف الرسالة التي تسمى: «المدونة الصغرى»، وتلقب بباكورة السعد، وزبدة المذهب المالكي، وهي أول مختصر ظهر في المذهب بعد تفريع ابن الجلاب»[2].

وابن أبي زيد القيرواني هو أيضاً، مؤلف كتاب «النوادر والزيادات» الذي يعتبر الأم الأساسية للمذهب المالكي، لأن المؤلف جمع فيه بين «المدونة» و«الواضحة» و«العتبية» و«المَوّازية». ويقال إن المسألة الفقهية إذا لم يحوها كتاب «النوادر والزيادات»، فيمكن القطع بأنها ليست في المذهب المالكي. علماً بأن كل مراجع الفقه المالكي تعزو لهذا الكتاب، كتاب «النوادر والزيادات».

إذن، لم تتوقف عجلة التيار الفقهي المالكي، ففي حين وضع بعض المشارقة حصانه وراء العربة، نهض به أبناء القيروان، ودفعوا عجلته إلى الأمام، بإثرائه بالتأليفات والتفريعات والتعليقات، ومن ثم ازدهرت معالمه الفقهية، وانتشرت على أيدي الإرساليات العلمية من وإلى الأندلس، والمغرب الأقصى، حتى أضحت القيروان مدرسة علمية لها خصائصها المميزة وأصبحت حلقة وصل فقهية بين المشرق والمغرب.. والذي يخصنا من المغرب ـ في هذا البحث ـ هو تلك البلاد التي عرفت بأسماء متعددة تحيل على حقب وعهود تاريخية مختلفة وتقع على مناطق غير متطابقة، ما فتئت تتسع وتضيق عبر العصور. ولعل أشهر هذه الأسماء: صحراء

---

(1) انظر مناقب سيدنا الإمام مالك، للشيخ عيسى بن مسعود الزواوي، ص 80.

(2) انظر الفواكه الدواني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني للنفراوي ج 1 ص 2، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر.

الملثمين[1] وبلاد التكرور[2]، وبلاد شنقيط[3]، والمنكب البرزخي، وبلاد على فترة من الأحكام، والبلاد السائبة[4]، والبلاد المغربية الصحراوية البيضانية[5]، وموريتانيا[6] تلك البلاد التي لم تُعَبَّد الطرق البرية بينها وبين

---

(1) كان الصنهاجيون المقيمون بالصحراء أهل لثام في قديم عهودهم، ولذلك غلب عليهم اسم الملثمين، ونسبت إليهم الأرض فسميت (صحراء الملثمين) لأنهم كانوا في قرون الإسلام الأولى سكانها الغالبين عدداً ونفوذاً، فكانت قبائل صنهاجة الثلاث (لمتونة، ومسوفة، وكداله) تنتشر في أركان البلاد. وفيها أقاموا دولة أنجبت ـ بعد قرنين وزيادة ـ دولة المرابطين. انظر بلاد شنقيط.. المنارة والرباط، تأليف أ.د. الخليل النحوي، نشر المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، الطبعة الأولى، تونس 1987.

(2) عرفت تلك المنطقة ـ في فترة ما ـ باسم (بلاد التكرور)، والتكرور في الأصل علم على مدينة ذكرها البكري، وقال إنها كانت على ضفة النهر. وقد أطلق اسم (التكرور) على أول مملكة إسلامية في السودان الإفريقي، فقد أسلم زعيم هذه المملكة [واراجيبي (ت 432 هـ/ 1040 م) WaraDiabie] وسعى لنشر علوم الدين في مملكته. واختلف المؤرخون في تحديد موقع هذه الدولة، أو المنطقة، التي تعرف باسم «التكرور» بين حوض نهر السنغال، ونهر النيجر، ومنطقة ولاتة. انظر المرجع السابق ص 20، نقلاً عن (Vincent Monteil: Islam Noir P. 62).

(3) لم يعرف هذا الاسم إلا بعد بروز مدينة «شنقيط»، كعاصمة للعلم ومنطلق للحجيج. وقد كان ذلك مع بداية الألف الهجرية الثانية، أي بعد تأسيس مدينة شنقيط بقرون. وقد صار اسم هذه المدينة علماً على تلك البلاد عند أهل الأمصار، على حد قول العلامة سيدي عبدالله بن الحاج إبراهيم. انظر المرجع السابق، ص 20 بتصرف.

(4) هذا الاسم أطلقه عليها الشيخ محمد المامي (1875 م)، وميلود بن المختار، وسيدي عبدالله (1818 م).

(5) هذا الاسم أطلقه عليها بابا بن الشيخ سيديا (1342 هـ/ 1924 م)، وقد استعصى عليه إيجاد اسم جامع مانع لها انظر المرجع السابق، ص 20 بتصرف.

(6) «موريتانيا» اسم روماني عتيق، ابتعثه من مرقده أولُ حاكم فرنسي لبلاد شنقيط (كابولاني 1905 م) واقترح إطلاقه على بلاد شنقيط، وإن كان الرومان لم يحكموا تلك البلاد. و «موريتانيا» اسم مركب من كلمتين: Mauros، اليونانية، ومعناها «أسمر»؛ و Tania، اللاتينية، ومعناها «أرض»، أو «بلاد». فهي إذن «بلاد السمر» انظر المرجع السابق ص 25.

القيروان حتى الآن، وبالتالي يستحيل ـ في زمننا الحاضر ـ الذهاب إليها براً من القيروان، فكيف ذلك الزمن؟!. ولكن «عقبة بن نافع، رضي الله عنه، واصل سيره من السوس حتى وصل ولاتة»[1] التي هي في أقصى الحدود الشرقية السياسية لموريتانيا حالياً؛ ففتحها وبنى بها مسجداً. قال ابن عذاري: «أخبرني الشيخ الصالح، أبو علي صالح بن أبي صالح، أنه لم يصح عنده أن عقبة حضر بنيان شيء من المساجد بالمغرب؛ إلا مسجد القيروان، ومسجداً بالسوس الأقصى»[2].

ووصل حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع إلى أوداغست (عاصمة الصنهاجيين القديمة) في حملته سنة 116 هـ / 734 م[3] وبعد ذلك بقرون «حج الأمير اللمتوني يحيى بن إبراهيم الكدالي. وفي طريق عودته مرّ بالقيروان سنة 426 هـ فلقي بها الفقيه أبا عمران الفاسي وشكى إليه حال قومه وحاجتهم إلى من يعلمهم فانتدب له عبدالله بن ياسين الجزولي الصنهاجي»[4] ثم ـ بعد ذلك ـ استطاع القيروانيون، بقوة الإخلاص، وعزيمة الإيمان، أن ينشروا الفقه المالكي في ربوع تلك البلاد، حتى إن المتمعن لا يكاد يجد على الإطلاق شخصاً يقلد مذهباً فقهياً غير المذهب المالكي، لا في الماضي، ولا في الوقت الحاضر.

ولا جرم أن ذلك عائد إلى أن الفقه المالكي كان أول وآخر ما نشر في تلك البلاد عن طريق أشخاص فرادى في البداية، مثل: (زبافره) أو (زباقرة)، الذي يذكر أنه كان في أوداغست قديماً... إلخ. وكذلك الإمام الحضرمي المعروف، المتوفي سنة (489 هـ)، وهو مدفون في «آزويكه» التي تبعد

---

(1) المرجع السابق ص 30.

(2) المرجع السابق ص 30 عزوا إلى: ثقافة الصحراء لعباس الجراري؛ والبيان المغرب، لابن عِذَارِي المراكشي.

(3) المرجع السابق ص 66.

(4) المرجع السابق ص 64 بتصرف.

مسافة (25) كيلومتراً من مدينة أطار[1].

ثم تتالت ـ بعد ذلك ـ الهجرات الجماعية والإرساليات العلمية الموفدة كما أسلفت من قبل مدينة القيروان عاصمة الإسلام الأولى في بلاد المغرب. فانتشر علم المدينة في بلاد شنقيط عبر مدينة القيروان، فتلقف أهل المنطقة هذا الفقه، واعتنوا بالمصنفات التي صنفت فيه، وحفظوها وجعلوها مصادر ورتبوها وألفوا في شروحها المؤلفات.

ويمكننا أن نأخذ رسالة ابن أبي زيد القيرواني، كمثال على ذلك، فرسالة ابن أبي زيد تلقتها الأمة جمعاء بالقبول، وتلقفها أهل بلاد شنقيط بالشرح والتعليق والحفظ، فأكثروا من التأليف حولها: فشرحها بعضهم، ونظمها آخرون، وشرح نظمها غيرهم.

فأما الرسالة المنثورة، فقد شرحها المتقدمون والمتأخرون[2]. . . ومن

---

(1) عاصمة ولاية آدرار، بالجمهورية الإسلامية الموريتانية حالياً.

(2) الحق أن من الصعب حصر شروح رسالة ابن أبي زيد، ومن أهم هذه الشروح:

أ ـ شرح الرسالة، لأبي بكر محمد بن موهب التميمي المقبري القرطبي المتوفى سنة 406 هـ. وهو تلميذ ابن أبي زيد.

ب ـ شرح رسالة ابن أبي زيد: القاضي أبو محمد عبد الوهاب بن علي بن نصر البغدادي (ت 421 هـ).

ج ـ شرح رسالة ابن أبي زيد: أبو بكر محمد بن الوليد الطرطوشي (ت 520 هـ).

د ـ شرح على رسالة ابن أبي زيد: عبدالله بن أحمد بن سعيد العبدري البلنسي، يعرف بابن أبي الرجال (ت 566 هـ).

هـ ـ شرح الرسالة: شيخ أحمد زروق.

و ـ شرح الرسالة: عمر بن علي اللخمي الفاكهاني.

ز ـ تحقيق المباني وتحرير المعاني في شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني: علي بن محمد بن عبد الحق الزرويلي (ت 719 هـ).

ح ـ شرح الرسالة: القاضي جمال الدين عبدالله بن مقداد الأقفهسي (ت723 هـ).

ط ـ التقييد على رسالة ابن أبي زيد: ابن الحجاج يوسف ابن عمر الأنفاسي =

أكثر شروحها رواجاً كتاب «الفواكه الدواني شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني» لأحمد بن غنيم بن سالم النفراوي.

وقد شرحها من الشناقطة: الشيخ طالب أحمد بن أبي بكر البرتلي (ت 1208 هـ). والشيخ محمد عبد الرحمن بن المبارك القناني (ت 1223 هـ) والشيخ سيدي عثمان بن اعمر سيداتي اليونسي (ت 1237 هـ). والشيخ سيدي أحمد بن محمد بن بوكفة المحجوبي (ت 1240 هـ)، والشيخ أحمد بن بشير القلاوي (ت 1277 هـ).

وأما من نظموها فأشهرهم: أبو محمد عبدالله بن الحاج (حماه الله) الشنقيطي (ت 1209)، الذي نظمها في ثمانية وسبعين وسبعمائة ألف (1778) بيت من أبيات الرجز، وأبياتها تامة كلها إلا بيتاً واحداً (في باب ما تعتقده الأفئدة وتنطق به الألسنة). فإنه مشطور، أي محذوف النصف، وهو قوله رحمه الله:

* وقد هدى به الصراط المستقيم *

وهذا يدل على تفننه في النظم وإبداعه في الشعر.

ومنظومة ابن الحاج (حماه الله)، هذه، تعتبر من أكثر المنظومات رواجاً في بلاد شنقيط، لحسن نظمها وسلاسة أسلوبها، حتى إن الناظم في أحايين كثيرة لا يغير ألفاظ المصنّف الأول (أبي محمد عبدالله بن أبي زيد القيرواني) وذلك لقدرة ابن الحاج (حماه الله) على النظم وحسن ألفاظ نظمه وجزالة معانيه ورصانتها، مما جعل منظومته شيقة وسهلة المنال.

= الفاسي (ت 761 هـ).

ي ـ تقريب الدلالة في شرح الرسالة: أحمد بن حسن ابن قنفذ (ت 809 هـ).

ك ـ شرح الرسالة: أبو مالك عبد الواحد الونشريسي الفاسي (ت 955 هـ).

ل ـ حاشية على الرسالة القيروانية: الفقيه الحطاب (ت 995 هـ).

م ـ شرح فقه رسالة ابن زيد: أبو الإرشاد علي الأجهوري، (ت 1066 هـ) إلى غير ذلك من الشروح.

وكما قال في مقدمة نظمه، فإن تخصصه هو النحو والبلاغة وليس الفقه: قال في نفس المنظومة:

ولم أكن جذيل هذا الفن ... وما عليّ لومه لأني
شغلت بالنحو وبالبيان ... وإن هذان لساحران
وجلت فيما منهما يهوى الذكي ... واستغرق الكوفي قلب الملك

ونظراً لأنه لم يضف إلى رسالة ابن أبي زيد القيرواني شيئاً يذكر عندما نظمها، نظراً لذلك فإنه سماها بنفس الاسم. وقد يظن البعض أن ابن الحاج (حماه الله) لم يذكر اسمه في النظم لأنه إنما ذكر أبا محمد عبدالله ـ الذي هو ابن أبي زيد ـ حيث قال ابن أبي زيد في النثر: قال أبو محمد عبدالله بن أبي زيد القيرواني الحمد لله.. إلخ. فنظم ابن الحاج حماه الله الشنقيطي عبارة القيرواني هذه فقال في بداية نظمه للرسالة:

قال أبو محمد عبد الإلهْ ... لينظم النثر الذي جلا حُلاَهْ
الحمد لله على الإسلام ... وأفضلُ الصلاة والسلام
على النبيِّ صاحبِ الرسالة ... .إلخ

أقول: قد يخال البعض ذلك، ولكن الطريف في الأمر أن ابن الحاج (حماه الله) سَميُّ ابنِ أبي زيد، فاسم كل منهما «عبدالله» وكذلك الكنية واحدة هي: «أبو محمد».

ولذلك فإن من تمعن في الشطر الأخير من البيت الأول عند قول الناظم «لينظم النثر..»، يدرك أن أبا محمد هذا غير أبي محمد صاحب النثر الذي هو ابن أبي زيد القيرواني.

ثم إن عبدالله بن الحاج (حماه الله) لما فرغ من نظم الرسالة شرح نظمه هذا، وتلقاه الشناقطة بالقبول، وشرحه كثير من علمائهم.

وعادة الشناقطة أنهم ينظمون كل كتاب رأوا فيه فائدة يخشون أن يحول بين الطالب وبين حفظها أنها نثر، حيث إن النظم أسهل حفظاً من النثر بكثير، وأقل منه تفلتاً يقول ابن الحاج حماه الله في نظمه لكتاب الأخضري:

عبد الإله الشنقيطي يشتري بعقده النظوم تبر الأخضري
فرب من عقد اضطرار حَسَّنَهْ لعلني أنال الأَجْرَ والزِّنَة

ويقول هو نفسه في نظمه لرسالة ابن أبي زيد:

هذا ولما كانت الرسالة لعلم دين الله كالحبالة
تقتنص الوحشي والإنسي وتجمع البري والبحري
ولم يكن سيل الشروح يسقي حتى يعم جذرها للسيق
فأنبتت جواب كل سائل وآتت أكلها من المسائل
لكن لعسر حفظها المدارك منها خفية فكل تارك
مثلتها في كفتي ميزان درا وما الخبر كالعيان
لكي ينال حفظها بالنظر في شعرها المرغب المنفر

ويقول محمد بن أبَّ التواتي، في نظمه لمختصر ابن آجروم الصنهاجي المغربي، في النحو:

وبعد فالقصد بذا المنظوم تسهيل منثور ابن آجروم
لمن أراد حفظه وعسرا عليه أن يحفظ ما قد نثرا

وأما من شرحوا نظم الرسالة من الشناقطة فهم كثيرون، نذكر منهم:

ـ الشيخ محمد الأمين بن الطالب عبد الوهاب القلاوي (ت 1254 هـ) الولي الصالح الشهير الذي سمى شرحه للرسالة «بالتلخيص». ذلك الشرح الذي يعتبر موسوعة فقهية لا غنى عنها لمدرس رسالة ابن أبي زيد القيرواني في تلك المنطقة، حتى أن المثل الشعبي في موريتانيا يقول ما معناه: (إن الأسرة إذا ملكت خيمة وأتاناً وقربة وأمة، وكانت تملك إلى جانب هذا رسالة ابن أبي زيد القيرواني بشرح التلخيص فإنها صارت تملك الاكتفاء الذاتي «ثقافياً واقتصادياً». ويمكن أن تسكن وحدها دون أن تعيش مع الناس). وذلك عائد إلى ما تحويه رسالة ابن أبي زيد ويحويه شرحها «التلخيص» من أحكام فقهية. إضافة إلى مكانة الرسالة في المجتمع الشنقيطي، ومكانة شرحها هذا أيضاً، حيث يستمد مكانته من مكانة مؤلفه الشيخ محمد

الأمين بن الطالب عبد الوهاب، الذي هو عالم جليل وولي ورع، له تلامذة ومريدون كثير، وله مكانة مرموقة بين أوساط الشناقطة عامة.

ورغم المكانة التي يحتلها كتاب «التلخيص» في بلاد شنقيط، فإن هنالك شروحاً أخرى لرسالة ابن أبي زيد لها مكانتها هي الأخرى وهي:

- شرح الشيخ محمد يحيى بن سليمة اليونسي (ت 1354 هـ)

- وشرح أحمد زيدان بن البشير، المسمى «المفيد، في شرح رسالة ابن أبي زيد».

- وشرح الداه الشنقيطي. المسمى «الفتح الرباني على رسالة ابن أبي زيد القيرواني» وهو شرح لنظم عبدالله بن الحاج حماه الله للرسالة، وهو أقل الشروح مكانة بين الموريتانيين، فهم لا يعتبرونه مرجعاً يرجع إليه لفهم الرسالة، لأنه يذهب إلى الاختلافات خارج المذهب - في غالب أحواله - أكثر مما يشرح عبارة المؤلف، وبالتالي هو أقرب إلى الفقه المقارن منه إلى شرح رسالة ابن أبي زيد. . فمؤلفه (رحمه الله) يقارن المذهب المالكي - من خلال فقه الرسالة - بالمذاهب الفقهية الأخرى. وهذا إنما يدل على معرفته بالمذاهب الأربعة.

والحق أن شروح الشناقطة لرسالة ابن أبي زيد القيرواني كثيرة جداً، ورواج الرسالة في بلاد شنقيط لا يكاد يعدله رواج كتاب فقهي آخر، حتى صارت الأمثال الشعبية تضرب أكثر ما تضرب برسالة ابن أبي زيد. من ذلك أن أحد الأمثال الشعبية التي يعرفها القاصي والداني في تلك البلاد. يقول «اللّي يعرف الرسالة ما تغلبو امْسَالَه» أي أن من أتقن الرسالة لم يعجز عن أي مسائل الفقه. وهنالك مثل شعبي آخر (أكثر عامية من سابقه) يقول في حق من يأكل بشراهة: «أنت ما كتبت الريشان؟!» يعني: أولم تدرس الكتاب الجامع لعبدالله ابن أبي زيد القيرواني؟!. والكتاب الجامع ملحق بالرسالة، ويعتبره الشناقطة غير منفصل عنها. ويدرسونه أثناء دراستهم للرسالة، ويعتبرونه لا غنى عنه لأنه يعلم الفتى مختلف الآداب الإسلامية وخاصة آداب الطعام في الإسلام.

وهكذا رتب ابن أبي زيد القيرواني فقه الإمام مالك بن أنس (رحمه الله تعالى) وألف فيه؛ فكانت مؤلفاته من ضمن المؤلفات المالكية التي انتشرت وعمت بلاد شنقيط، حتى اعتبرت منهجاً علمياً لا بد للطالب المتخصص في الفقه الإسلامي أن يتدرج فيه، وإلا فإنه يكون قد ترك ركناً من أركان البرنامج. المنهجي التعليمي في التخصصات الشرعية.

ذلك أن طالب العلوم الشرعية، الذي درس في المحاظر الأهلية، لا بد له أن يمر بمؤلفات معينة صارت معتمدة كمنهج دراسي، على من يريد التعمق في العلم أن يدرسه بحذافيره، وبالترتيب، وإلا فإن علمه سيكون متواضعاً بالنسبة لما يمكن أن يكون عليه لو أنه اتبع الطريقة المنهجية النموذجية السائدة. قال العلامة محمد يحيى الولاتي (1330 هـ)، يذم عدم اتباع بعض المتأخرين للمنهج الدراسي الذي كان سائداً في بلاد شنقيط:

علامة الجهل بهذا الجيل ترك الرسالة إلى خليل
وترك الأخضري إلى ابن عاشر فترك هذين لهذين احذر

فالعلامة الولاتي، (رحمه الله) في هذين البيتين يُرجِع سبب تفشي الجهل في زمنه، إلى عدم اتباع التدرج المنهجي في دراسة العلوم الشرعية حيث يعتبر ـ كما هو واضح من البيتين ـ أن الطالب عليه أن يبدأ بدراسة كتاب الأخضري، الذي هو خاص بالطهارة والصلاة من قسم العبادات في الفقه المالكي.

ثم بعد أن يدرس كتاب الأخضري، عليه أن يدرس كتاب «المرشد المعين على الضروري من علوم الدين» لابن عاشر. وهذا الكتاب عبارة عن ثلاثة عشر وثلاثمائة بيت نظم فيها المؤلف بعض الأحكام المتعلقة بالعقيدة والتصوف، والعبادات «التي هي الطهارة والصلاة والصوم والحج» دون أن يتعمق فيها. وبعد أن ينتهي الطالب من دراسة كتاب ابن عاشر عليه أن يبدأ في دراسة رسالة ابن أبي زيد القيرواني، ليتعمق في فقه العبادات ويضيف إلى معلوماته ملفاً فقهياً جديداً، هو فقه المعاملات.

ثم بعد ذلك يبدأ في دراسة «مختصر خليل» الذي من خلاله يتخرج متقناً للمعاملات والعبادات، ويتصدر لتدريس فن الفقه دون أن يحتاج إلى مراجع إلا في حالات نادرة.

وقد اضطلع العلماء الشناقطة بمهمة حمل الرسالة العلمية الخالدة التي أوصلتها إليهم الإرساليات العلمية القادمة من القيروان، فبلغوها ـ هم بدورهم ـ للبلدان الإفريقية المجاورة، على الطريقة التي أوصلها إليهم أبناء القيروان عن طريقها. فدرسوهم نفس المؤلفات وخاصة المؤلفات القيروانية التي أصبحت كتبها تباع أكثر ما تباع في «السنغال» حالياً و «مالي» و «ساحل العاج»... إلخ. وبذلك، كان المجتمع الشنقيطي «مثلاً من أمثلة المجتمعات البدوية العربية القليلة، التي استطاعت أن تقيم حياة متميزة في اتصالها الإنساني المتنوع مع المجتمعات الإفريقية، وفي العلاقات الفريدة التي نسجتها معها من خلال الصلات الاقتصادية والاجتماعية والدينية والثقافية...»[1].

فقد نشر الشناقطة الإسلام بين أوساط جيرانهم الأفارقة، وكان من بين ما أوصلوا إليهم: المؤلفات القيروانية، وتجشموا صعوبة الاغتراب عن الوطن، بغية نشر العلم، رغم تواضع وسائل النقل آنذاك.

وكما نقل الشناقطة الإسلام إلى البلدان الإفريقية المجاورة؛ فإنهم ـ كذلك ـ نقلوا المؤلفات المغاربية، في جميع الفنون، إلى المشرق، وحفظوا للأمة تراثها العلمي والأدبي، في فترة كان المشرق الإسلامي يعيش عصر الانحطاط... يقول طه الحاجري: «إن الصورة التي أتيح لنا أن نراها لشنقيط في هذين القرنين (12 و13 هـ) جديرة أن تعدل الحكم الذي اتفق مؤرّخو الأدب العربي على إطلاقه»، فلقد «كانت شنقيط مركز إشعاع علمي، تحمل النسبة إليه ـ تلقائياً ـ جملة من المعاني التي تتناثر في التراجم: عالم، فقيه،

---

(1) د. محيي الدين صابر، مدير المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم في تقديمه لكتاب الخليل النحوي «بلاد شنقيط... المنارة والرباط» ص 5.

محدث، حافظة، شاعر، راوية لأيام العرب وأشعارها. . . إلخ».

ذلك أن الطالب الشنقيطي يتخرج من «المحاظر» التي هي جامعات، جامعة لكل التخصصات الإسلامية والعربية؛ فالدارس فيها، يتخرج «متقناً» للشريعة الإسلامية وللغة العربية وآدابها.

ـ والمحظرة كما وصفها الفرنسي لكورتوا «Le courtois»، هي: «جامعة شعبية تستقبل كل ما يرد عليها، من جميع المستويات الثقافية، والفئات العمرية والجنسية والاجتماعية، تستقبل المبتدىء كما تستقبل العالم فتجدد له معارفه وتوسعها وتعمقها. . . . تبذل لكل طالب ما يريد من ضروب المعرفة حسب مستواه الثقافي وهوايته وطاقته واستيعابه. وهي لا تسد أبوابها، وإن عطلت الدراسة أياماً معدودات، بل تستمر في العطاء على مدار السنين، وهي لا ترد طالباً لعدم وجود (مقاعد شاغرة)، ولا تغلق أبوابها لقلة عدد الطلاب المنتسبين، فلا حد أدنى ولا حد أعلى للعدد الذي يقوم به نظام المحظرة، بل ينقص العدد أو يزيد تبعاً لصيت الشيخ ومدى تفرّغه. . . إلخ»[1].

ـ وحسب تعريف أحد العلماء المتخرجين من المحظرة هو أ.د. الخليل النحوي، «وأهل مكة أدرى بشعابها»، فإن المحظرة هي: «جامعة شعبية، بدوية متنقلة، تلقينية، فردية التعليم، طوعية الممارسة»[2].

ـ والمحظرة كما يعرفها د. محيي الدين صابر، مدير المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، هي: «الجامعة البدوية التي أبدعتها التجربة الشنقيطية، كمؤسسة متكاملة للمجتمع العربي الإسلامي في قاصية الوطن العربي، فكانت ـ كما يقول الأستاذ الخليل النحوي ـ «مدارس علم، ورباط جهاد، ومنارة إشعاع»، يلتقي حولها الالتزام الفكري والديني. ويتلاحم الانتماء العربي الإسلامي، ويكون السعي، في المجالين، رباطاً ونضالاً

---

(1) المرجع السابق، نقلاً عن: Le courtois: Etude exprimentale sur l'enseignement traditionnel, P 31.

(2) بلاد شنقيط. . المنارة والرباط ص 53.

وجهاداً، وهذا هو قمة العطاء القادر»[1].

«فلم يقدر مجتمعُ الثقافةَ ـ في ظل الدولة وفي غيابها ـ كما كان الشناقطة يقدرونها، فلقد كان العلم لهم وطناً ونسباً وحسباً»[2].

و «كانوا يجوبون ديار العروبة والإسلام، سفراء لبلدانهم، مفصحين عن عبقريتها، حاملين منها العلم والأدب رسالة حياة وشهادة انتماء، فيُلَقَّوْن بالإكرام والتجلة، أينما حلوا تحل بهم شنقيط في القلوب قريبة مكينة وإن بعدت الشقة»[3].

وقد نشر الشناقطة الفقه المالكي في كثير من البلدان الإسلامية، خاصة في القارة الإفريقية، حيث أصبح جميع من فيها من المسلمين يقلدون المذهب المالكي، ولا يريدون به بديلاً. ذلك أن الفقيه المالكي كلما ازداد علماً وفهماً للمذاهب الأخرى ودراسة وتعمقا فيها، ازداد تمسكاً بالمذهب المالكي. حيث يجد فيه الاحتياط لأمور الدّين، إلى جانب قوة الدليل، ودقة الاستنباط.

من ذلك أن الشيخ محمد الخضر بن ما يأبى (1534 هـ) الشنقيطي المعروف، الذي كان وحيد دهره وفريد عصره، وكان من أكابر القضاة في بلاد شنقيط، ورئيس العلماء بعد ذلك في المغرب، ومفتياً للمذهب المالكي بالمدينة المنورة، ومدرساً بالحرم النبوي الشريف، وقاضياً للقضاة بعد ذلك في الأردن... إلخ، لما تعمق (رحمه الله) في المذاهب الأربعة وحفظ الكتب الستة في الحديث الشريف ووصل إلى رتبة الاجتهاد، لما تعمق في العلم هذا التعمق، ازداد تقليداً للمذهب المالكي. فنجده (رحمه الله) يقول في مقدمة كتابه المعروف «كوثر المعاني الدراري في كشف خبايا صحيح البخاري»[4]:

---

(1) د. محيي الدين صابر، في تقديمه لكتاب «بلاد شنقيط... المنارة والرباط ص 5.
(2) بلاد شنقيط... المنارة والرباط الخليل النحوي ص 10.
(3) المرجع السابق ص 9.
(4) في الجزء الأول ص 9. دار البشير للنشر والتوزيع.

«لقد حفظت مختصر خليل وشروحه، وحواشيه كما حفظت كتب الصحاح بما فيها الموطأ، واعتقد أني قد وصلت درجة الاجتهاد، ولكن كلما ازددت علماً ازددت تمسكاً بمذهب الإمام مالك، إذ أني أجد فهمه وعلمه أمامي في كل درجة أصل إليها».

هكذا رسخ فقه الإمام مالك، واستنباطات تلاميذته ـ من قيراونيين وغيرهم ـ في نفوس المغاربة عموماً والشناقطة على وجه الخصوص. فصاروا مَدِينِين للمدرسة الفقهية بالقيروان، وذلك لما أوصلت إليهم من العلوم الإسلامية، ولما لعبت من دور فعال كان له أكبر الأثر في نشر الفقه المالكي في ربوع تلك البلاد وشقيقاتها المغاربية، والإفريقية.

وبهذا الدور الذي لعبه أبناء القيروان: من دراسة للمذهب المالكي وتعليق عليه وتأليف فيه وشرح له، ثم تجنيد للإرساليات العلمية لتعليمه وتدريسه ونشره في المغرب الإسلامي، بهذا الدور الفعال، كانت مدينة القيروان مركزاً علمياً مالكياً بين المشرق والمغرب... مركزاً يستحق أن تعقد له الملتقيات بل وأن تؤلف فيه المؤلفات.

القيروان بتاريخ 16 فبراير 1994

عمر السالك بن الشيخ سيدي محمد الشنقيطي

باحث ومترجم بدائرة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدبي

دولة الإمارات العربية المتحدة